إنسانية التأريخ :

عن الفاتحة النصية للخطط المقريزية

obeikandl.com

obeikandl.com

همزة التأريخ :

لعل من يراجع ما عانت الأمة الإسلامية و العربية و تعانى من مشكلات فكرية و ما تحفل به من إشكاليات ثقافية يتوقف عند الأثر السلبى البالغ لغياب الهمزة من "التاريخ" و يستطيع بقليل من الجهد الذهنى أن يرد إلى هذا الغياب عدداً كبيراً من تلك المشكلات و الإشكاليات. فـ"التاريخ" بغير الهمزة اسم و الاسم ثابت مطلق و فى وجود الهمزة يصبح الاسم فعلاً نسبياً متغيراً متحولاً. هذا الفارق الجوهرى بين التاريخ و التأريخ، الذى أشرنا إليه فى مقدمة الكتاب، هو الفارق الذى نجده بين الكتابة العلمية و الكتابة الإبداعية:

وما بين المعرفة التى يتضمنها خطاب علمى وبين المعرفة التى تأتينا عبر الكتابة الإبداعية، بون شاسع . المعرفة فى الخطاب العلمى - كما يقترح بارث - ملفوظ، وهى فى الكتابة تلفظ، وشتان ما بين الحالة الأولى والحالة الثانية، فالملفوظ مُنتَج، إنه كيان جامد لا روح له ، أما التلفظ فهو طريقة وتصور فى الإنتاج، إنه انفعال إنسانى ، أو هو إمساك بأحوال الذات وابتهاجها بنفسها وما يحيط بها [1] .

ولقد أدرك كثيرون فى الغرب وقليلون فى عالمنا العربى أن التاريخ ليس كالفيزياء والكيمياء و الأحياء وغيرها من العلوم الطبيعية ومن هنا نشأت مدارس نقدية كالتاريخية الجديدة و تتمثل أهم مقولاتها ومفاهيمها فى أن النص

(١) أمبيرتو إيكو: حاشية على اسم الوردة - آليات الكتابة، ١٩٨٣، ترجمة وتقديم: سعيد بنگراد. http://www.said-yaktine.com/eco.htm. بقليل من التصرف.

التاريخي/ السردى ليس كياناً سردياً مستقلاً عن الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، كما أن "معنى النص" ليس ثابتاً بل يتغير بتغير ظروف التلقي. ليس التاريخ نسقاً متجانساً ثابتاً من الحقائق والأحداث، فهو فى نهاية الأمر نص سردى يخضع للظروف الثقافية والاجتماعية المحيطة بإنتاجه وتلقيه. و ليست هناك طبيعة إنسانية جوهرية خالدة لا تتغير، كما أن مؤلف النص ليس كائناً مستقلاً موضوعياً مفرغاً من الدافعية والأيديولوجيا . يصدق هذا كذلك على القارئ، فليس هناك قراءة بريئة محايدة، بل يتراوح موقف القارئ من النص بين التعميم والتبى و الرفض و الصمت والتحوير و التوظيف و ربما التسليع و تختلف مخرجات القراءة باختلاف الظروف التى تحدث فيها [1].

إن التأريخ فى مراحله المختلفة فعل إنساني: فى جمع الحقائق والمعلومات وفى نقدها وفحصها وفى كتابتها عرضها. وسوف تظل ثنائيات القديم والجديد والأصالة والمعاصرة والتقليد والتجديد والتلقى والنقد تعجزنا عن الحركة والنمو طالما لا نستطيع أن نسقط عن التاريخ ما اكتسبه فى ثقافتنا من قداسة هذا التقديس هو الذى يرد إليه كثير من عاداتنا القرائية السالبة والتى تكتفى بالصمت والتلقى ولا تتجاوزهما إلى التحليل والنقد ومن هذا النوع من القراءة ينبع العنف والتطرف ونفى الآخر وتهميش الاجتهاد. ولا ينبغى أن يقودنا ذلك إلى نقيض التقديس بل إلى القراءة الواعية الناقدة. فى هذه الدراسة نتناول جزءا من نص تأريخى مهم فى محاولة للتعرف على "إنسانيته" التى لا تتنافى مع منهجيته

(1) Abrams, M. H. (1993). A Glossary of Literary Terms, 6th ed. New York: Harcourt Brace.

الصارمة ولا تنفيها. وحين نتخلص من بعض أوهامنا عن التاريخ يصبح من السهل التخلص من كثير من عاداتنا السيئة فى قراءة الرواية.

فاتحة الخطط المقريزية :

"الحمد لله الذى عرّف وفهّم، وعلم الإنسان ما لم يكن يعلم... وعلى آله وصحابته والتابعين وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين ، وبعد فإن علم التاريخ من أجل العلوم قدراً وأشرفها عند العقلاء مكانة وخطراً، لما يحويه من المواعظ والإنذار بالرحيل إلى الآخرة عن هذه الدار والإطلاع على مكارم الأخلاق ليقتدى بها واستعلام مذام الفعال ليرغب عنها أولو النهى.. وكانت مصر هى مسقط رأسى وملعب أترابى ومجمع ناسى ومغنى عشيرتى وجامتى وموطن خاصتى وعامتى وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره وعش مأربى فلا تهوى الأنفس غير ذكره لازلت مذ شذوت العلم وآتانى ربى الفطانة والفهم أرغب فى معرفة أخبارها وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها وأهوى مسائله الركبان عن سكان ديارها فقيدت بخطى فى الأعوام الكثيرة وجمعت من ذلك فوائد قل ما يجمعها كتاب أو يحويها لعزتها وغرابتها إهاب إلا أنها ليست مرتبة على مثال ولا مهذبة بطريقة ما نسج على منوال أردت أن ألخص منها أنباء ما بديار مصر من الآثار الباقية عن الأمم الماضية والقرون الخالية.. وأنثر خلال ذلك نكتاً لطيفة وحكماً بديعة شريفة من غير إطالة ولا إكثار ولا إجحاف مخل بالغرض ولا اختصار بل وسط بين الطرفين وطريق بين فلهذا سميته... وإنى لأرجو أن يحظى إن شاء الله تعالى عند الملوك ولا ينبو عنه طباع العامى والصعلوك ويجله العالم المنتهى ويعجب به الطالب

المبتدئ وترضاه خلائق العابد الناسك ولا يمجه سمع الخليع الفاتك ويتخذه أهل البطالة والرفاهية سمرا ويعده أولو الرأى والتدبير موعظة وعبرا يستدلون به على عظيم قدرة الله تعالى فى تبديل الأبدال ويعرفون به عجائب صنع ربنا سبحانه من تنقل الأمور من حال إلى حال، فإن كنت أحسنت فيما جمعت وأصبت فى الذى صنعت ووضعت فذلك من عميم منن الله تعالى وجزيل فضله وعظيم أنعمه على وجليل طوله وإن أنا أسأت فيما فعلت وأخطأت إذ وضعت فما أجدر الإنسان بالإساءة والعيوب إذا لم يعصمه ويحفظه علام الغيوب [نظم].. فليسبل الناظر فى هذا التأليف على مؤلفه ذيل ستره إن مرت به هفوة وليغض تجاوزاً وصفحاً إن وقف منه على كبوة أو نبوة فأى جواد وإن عنق ما يكبو وأى عضب مهند لا يكل ولا ينبو لاسيما والخاطر بالأفكار مشغول والعزم لالتواء الأمور وتعسرها فاتر محلول والذهن من خطوب هذا الزمن القطوب كليل والقلب لتوالى المحن وتواتر الإحن عليل .. [نظم]... والله أسأل أن يحلى هذا الكتاب بالقبول عند الجلة والعلماء كما أعوذ به من تطرق أيدى الحساد إليه والجهلاء وأن يهدينى.. سواء السبيل إنه حسبنا ونعم الوكيل.. لا إله إلا هو ولا معبود سواه...".

التحليل :

هذه – بقدر من التصرف بالحذف - هى الفاتحة النصية (incipit) لكتاب **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية** لتقى الدين أبى العباس أحمد بن على المقريزى (٧٦٦ - ٨٤٥هـ) والذى ولد فى بعلبك (؟) لكن نشأ وعاش فى القاهرة. أعيد نشر هذا الكتاب فى سلسلة **الذخائر**، القاهرة: الهيئة

العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٩م. يقع الكتابُ فى أربعة مجلدات، تكفل المجلد الأول منه بمسائلَ جغرافيةٍ، وأمورٍ تاريخية، وحديث عن معالم للعمران البشري. ثم كان المجلد الثانى عن تاريخ الخليقة فى كلياته العامة، وأصوله المتشابكة المشتركة. والجزء الثالث عُنى ببعض الوقائع، والحوادث، والمعالم. واهتم المجلد الأخير بالمساجد الجامعة، والفرق العقائدية، والمشاهد، والكنائس و ما إليها.

هذه الفاتحة النصية جزء من المقدمة إذ يرد بعدها (ذكر الرؤوس الثمانية) وهى الغرض والعنوان والمنفعة والمرتبة وصحة الكتاب ومن أى صناعة هو وكم فيه من أجزاء وأى أنحاء التعاليم المستعملة فيه (ص٣). سوف تركز هذه المقاربة على الفاتحة النصية و تلقى بعض الضوء على بقية المقدمة.

ليس من العسير أن نضع أيدينا على ما للفاتحة النصية من أهمية، إذ تقع فى مكان حدودى بين النص والعالم ، تكشف عن مؤثرات وتأثيرات السياق على الكاتب والنص ومن ثم على المتلقى وتتضمن مجموعة من بنود عقد القراءة بين الكاتب والمتلقى وتشكل الجزء الأكبر من أفق التلقى، خصوصاً فى ظل غياب صفحة الغلاف.

إن مصطلح incipit فى أصله اللاتينى يعنى "here/it begins" أو هنا يبدأ والفاعل المستتر هو النص والمؤلف معاً: هنا يبدأ سواد الكتابة يقطع بياض ما قبل الكتابة، هنا يبدأ النص فى التحول من فكرة إلى نسق لغوى؛ هنا يبدأ الكاتب فى تقديم بضاعته للقارئ ؛ هنا يبدأ القارئ فى القراءة والدخول إلى عالم النص[١].كما

(١) أندرى دى لنجو: "فى إنشائية الفواتح النصية"،ترجمة: سعاد بن إدريس نبيغ. **نوافذ**، ١٠، ١٩٩٩، ص ص ١٩-٦٨.

أنه ليس من العسير تعيين حدود الفاتحة النصية فى خطط المقريزى فهى تبدأ بالبسملة وتنتهى عند "لا إله إلا هو ولا معبود سواه" التى يليها مباشرة عنوان يتوسط الصفحة:

(ذكر الرؤس الثمانية)

أول ما يلفت النظر فى الفاتحة النصية هو هيمنة الخطاب الدينى فهى تبدأ بديباجة دينية [1] : البسملة والحمد والصلاة والسلام على رسول الله و تتخللها المفردات الدينية تتسم هذه الديباجة بدورها بهيمنة السجع والجناس والتكرار والتوازى التركيبى والتقفية الداخلية والخارجية وكذا الاقتباس من النصوص الدينية الإسلامية: "وعلم الإنسان مالم يكن يعلم"، "نعما ظاهرة وباطنة"، "طبع على قلوب آخرين"، سيحشرهم أجمعين"، "لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون، "فى عليين". من هنا يتبدى التناص المحورى بين هذه الفاتحة النصية من ناحية وبين سائر الفواتح النصية فى كتب التراث وخطبة الجمعة وخطاب الفتاوى وجملة الكتب الدينية الإسلامية من ناحية أخرى.

هذه الديباجة الدينية تعكس هيمنة الدين على مستوى الخطاب والحياة اليومية فى العالم العربى الإسلامي، تلك الهيمنة التى عاشت أزهى عصورها منذ نزول القرآن حتى نهاية الدول العثمانية وبداية الاحتكاك "بالفرنجة" أو الغرب. مازال الدين يحتل مكانة بارزة فى حياة الشرق، لكن أهميته تتضاءل مع التحول من الزراعة إلى الصناعة إلى المعلوماتية ومع ازدهار ما بعد الحداثة التى يتمثل أحد

(١) بوجمعة جمى: "خطاب المقدمات فى شروح- مخطوطة- لما أبدعه الحريرى من مقامات". جذور، ١، ١، ١٩٩٩، ص ص ٢٣٧-٢٥٤.

مبادئها فى القول بضعف تأثير السرديات الكبرى[1] metanarratives وأهمها الدين. نستطيع أن نقف على هذا التحول من خلال مقارنة بسيطة بين فاتحة خطط المقريزى وبين مقدمة أطروحة أكاديمية فى التاريخ الإسلامى فى مطلع الألفية الثالثة.

هكذا يقتحم السياق النصَّ على مؤلفه وهكذا يجلّى الخطاب ما يحيط بإنتاجه من أيديولوجيات وقيم سائدة. غير أن الفاتحة النصية- فى اعتمادها الخطاب الدينى إطاراً مرجعياً- لا تتوقف عند مجرد التعبير عن هيمنة هذا الخطاب على السياق الذى أنتجت فيه، بل تتجاوز ذلك إلى تحقيق غايات تواصلية منها التأسيس لمشروعية النص الذى ترد فى بدايته والتجاوب مع التوقعات القرائية السائدة فى زمانها وكذا التأكيد على مصداقية الخطاب الذى تقدم له من خلال استلهام القرآن الكريم والتقاطع مع نصوص وخطابات محورية فى الثقافة الإسلامية.

ولا يقتصر حضور الخطاب الدينى فى الفاتحة النصية على الديباجة الدينية بل يمتد إلى ما يتبقى منها فنجده فى تبرير دراسة التاريخ: "لما يحويه من المواعظ والإنذار بالرحيل إلى الآخرة عن هذه الدار والإطلاع على مكارم الأخلاق ليقتدى بها واستعلام مذامّ الفعال ليرغب عنها أولو النهى" (ص٢). هذا تبرير دينى أخلاقى ينسجم مع التوجه الدينى الذى يغلب على الفاتحة النصية، ويفترض أن التاريخ سجل للحقائق، لكنه لا ينسجم بالضرورة مع مبررات دراسة التاريخ فى عصور غير

(1)Strinati, D. (1995). An Introduction to Theories of Popular Culture. London and New York: Routledge, pp. 225-226.

عصر المقريزى وثقافات غير ثقافته. لقد أصبح بعض النقاد يتناولون التاريخ رغبة فى انتهاكه وإسقاط القدسية عنه من خلال الوقوف على ما فيه من فراغات وتحيزات وتجليات للأيديولوجيا ولعلاقات القوة والهيمنة التى تحيط بإنتاجه وتأويله. وينسجم تبرير المقريزى دراسة التاريخ كذلك مع العتبة الأولى للنص وهى العنوان الذى يحتوى مفردتين دينيتين هما "المواعظ" و "الاعتبار" تشيران إلى الغاية الكبرى للنص.

ثم ينتقل المؤلف إلى تأكيد انتمائه لمصر: "وكانت مصر هى مسقط رأسى.. فلا تهوى الأنفس غير ذكره". يؤدى هذا التأكيد وظيفتين على الأقل، الأولى هى إسقاط أهمية الانتماء إلى بعلبك من حيث المولد – على كل حال هذا الانتماء غير مؤكد – والثانية هى زيادة مصداقية المعلومات التاريخية التى تتضمنها الخطط. لكن هذا التأكيد يؤدى وظيفة ثالثة غير مقصودة وهى أنه يسم الكتابة بالتحيز لمصر واحدة على حساب سائر الأمصار.

تشتمل الفاتحة كذلك على إشارات دالة إلى فعل التأريخ والكتابة: "فقيدت بخطى فى الأعوام الكثيرة وجمعت.. فأردت أن ألخص منها أنباء ما بديار مصر من الآثار الباقية.. وأذكر ما بمدينة القاهرة من آثار القصور الزاهية.. مع التعريف بحال من أسس ذلك... والتنويه بذكر من شادها.. وأنثر خلال ذلك نكتاً لطيفة.. من غير إطالة ولا إكثار"(ص٣). هكذا نشأ نص خطط المقريزى: من جمع وتدوين أولى إلى تلخيص وترتيب ثم كتابة نهائية مع تنميق السرد "بنكت لطيفة" و"حكم بديعة شريفة". حسناً فعل المقريزى حين استخدم صيغة المبنى للمعلوم وحين اختار ضمير

المتكلم، لأنه- وهو مؤرخ ذائع الصيت- لا ينفى القصدية ولا يسقط همزة التأريخ. كما أنه يعلن صراحة أنه لخص مما جمع وقيد، وفعل التلخيص يشتمل على اختيار ودافعية وقصدية لم يشأ المقريزى أن يخفيها.

وتمارس الأنا دورها كذلك فيما يجد القارئ فى الفاتحة من تمجيد الذات: "فوائد قل ما يجمعها كتاب أو يحويها لعزتها وغرابتها إهاب.. من غير إطالة ولا إكثار ولا إجحاف مخل بالغرض ولا اختصار. كما أعوذ به من تطرق أيدى الحساد إليه" (ص٣). سوف يثير ذكر الحسّاد فى هذا الموضع دهشة- وربما سخرية- المحدثين، لكنه ليس نافراً عن سياقه، ودلالته على تمجيد الذات واضحة فهو يشى باعتقاد المؤلف أن كتابه من الجودة والأهمية بحيث يستفز الحساد.

لكن المؤلف لا يتمادى فى تمجيد ذاته لأن الخطاب الدينى الذى يستند إليه لا يستحسن تمجيد الذات. يظل المقريزى يلوذ بالدين وباللّه تعالى ينسب إليه الفضل وينسب القصور إلى كونه بشراً وإلى شواغله وهمومه ويرجو القارئ أن يغض الطرف عن كبوات المؤلف ومساوئ التأليف ويظل يدعو اللّه أن يحلى كتابه بالقبول ويختم الفاتحة النصية بالدعاء ثم التوحيد.

وربما يلفتنا كذلك فى هذه الفاتحة تأكيدها على أن فعل الكتابة/ التأريخ فعل إنسانى وأن المؤلف ليس كائناً أثيرياً أو أسطورياً بل هو بشر كالبشر يشكو ويرجو ويمجد عمله حيناً ويشعر بعجزه الإنسانى أحياناً. مازال الكتاب فى عصرنا واعين بوجود القارئ، حتى فى الأطروحات العلمية نجد إشارة إلى "حدود الدراسة" و"جوانب القصور فيها"، وإلى الصعوبات التى صادفتنا أثناء بحثه ونجد كذلك

الشكر لمن ساعد الباحث والاعتراف بأن ما فى البحث من قصور تقع اللائمة فيه على الباحث دون غيره. لكن حميمية التواصل فى فاتحة المقريزى لا شبيه لها فى كتب التاريخ أو الأطروحات الأكاديمية الحديثة.

كما تتجلى فى فاتحة المقريزى سمة من سمات الكتابة التاريخية التراثية وهى اللجوء إلى الشعر- الأصيل أو المقتبس. ينسجم اللجوء إلى الشعر مع الميل العام فى المصنفات التراثية نحو الإيقاع الظاهر والكلام المسجوع، ومع المراحل المبكرة فى التحول من الشفاهية إلى الكتابة ومع الإيمان بالشعر بوصفه نسقاً لغوياً أسمى وأوقع وأخلد من النثر. مازال الشعر يمثل ملاذاً للنحاة حين تعوزهم الشواهد وللخطباء حين يريدون رفع درجة استجابة المتلقى. كما ينسجم لجوء المقريزى إلى الشعر مع السياق القريب فى نص الفاتحة، فهو يلوذ بالشعر فى لحظات خاصة يتوسل فيها تسامح القراء ويشكوهم همه وغمه. لكن يظل المقريزى متهماً على الأقل بالصمت حين يورد أبياتاً شعرية لا يعلن صراحة أنها من نظمه كما لا يحيل القارئ إلى مصدرها إن لم تكن من نظمه (هل كانت هذه الأبيات من الذيوع بحيث لم يجد المؤلف حاجة إلى توثيقها؟)، لن يمر هذا الصمت مرور الكرام فى عصر الملكية الفكرية وحقوق الطبع، خصوصاً فى دراسة أكاديمية.

من قبيل تحصيل الحاصل أن نشير بعد ذلك إلى الطبيعة الميتانصية (النصية الشارحة) لفاتحة المقريزى . فهى ببساطة نص عن نص تستهله وتنسبه إلى فرعه المعرفى وتعرف بالسياق الذى أحاط بإنتاجه وتشير إلى محتواه، وبعض سمات أسلوبه، وغايات مؤلفه، وبعض شروط قراءته وتوقعات مؤلفه. والفاتحة كذلك

مقدمة لمقدمة، إذ يتبعها جزء أكثر "موضوعية" هو (ذكر الرؤوس الثمانية) وينتمى معها إلى النص المحيط Paratext [1]. من هنا ينبغى التأكيد على ضرورة دراسة المقدمة بكاملها وكذا تحليل المقدمة فى ضوء نص الخطط.

فى ذكر الرؤوس الثمانية ما لا يمكن تجاوزه من عرض للمنهج التأريخى فى مراحل التأليف المتعاقبة. يقول المقريزى: "اعلم أنَّ عادة القدماء من المُعلمين قد جرت أنْ يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب وهي: الغرض والعنوان والمنفعة والمرتبة وصحة الكتاب ومن أى صناعة هو وكم فيه من أجزاء وأى أنحاء التعاليم المستعملة فيه". إذن الخطط فى تناص ظاهر مع عادة القدماء من المعلمين و إذن نحن إزاء كتابة عن الكتابة لا مجرد كتابة عن الواقع . نصية شارحة مزدوجة: فالمقدمة نص عن نص و هو الخطط و هذا الجزء نص عن نص و هو المقدمة. ثم يتناول المؤلف تلك الرؤوس مستهلاً بنسبة ما يلى إلى نفسه دون مواراة أو مواربة: "فنقول: أما الغرض فى هذا التأليف فإنه جمع ما تفرّق من أخبار أرض مِصْر وأحوال سكانها كى يلتئم من مجموعها معرفة جمل أخبار إقليم مِصر وهى التى إذا حصلت فى ذهن إنسان اقتدر على أن يخبر فى كل وقت بما كان فى أرض مِصْر من الآثار الباقية والبائدة ويقص أحوال من ابتدأها ومن حلها وكيف كانت مصائر أمورهم وما يتصل بذلك على سبيل الاتباع لها بحسب ما تحصل به الفائدة الكلية بذلك الأثر." هذه هى مشكلة الكتاب أو موضوعه أو قضيته و كذلك أهدافه وغاياته. والمتلقى حاضر فى كل ذلك ماثل أمام المؤلف – "إذا حصلت فى ذهن

(1)Lane, P. (1992). La Peripherie du Texte. Paris: Nathan

إنسان...". إن المؤلف لا يكتفى بتحديد مشكلة كتابه و غايته بل يحدد غاية للقراءة إذا حصلت يمكن القول إن الكتاب قد حقق بعض أهدافه . تلك الغاية القرائية غاية مزدوجة – معرفية و سلوكية: "فتتهذب بتدبر ذلك نفسه وترتاض أخلاقه فيحب الخير ويفعله ويكره الشرّ ويتجنبه ويعرف فناء الدنيا فيحظى بالإعراض عنها والإقبال على ما يبقى." فى غياب المغريات البصرية و السمعية التى تتخطفنا اليوم تمثل تلك الغاية القرائية عنصراً مهما من عناصر الترغيب فى قراءة الخطط.

ولا يكتفى المؤلف بتحديد غاية الكتاب و ثمرة الاطلاع عليه بل يتجاوز ذلك إلى الحديث عما ينبغى أن يكون القارئ ملماً به قبل أن يشرع فى قراءة الخطط – أى الخلفية المعرفية اللازمة للقراءة: "أما مرتبة هذا الكتاب فإنه من جملة أحد قسمى العلم اللذين هما العقلى والنقلى فينبغى أنْ يتفرّغ لمطالعته وتدبر مواعظه بعد إتقان ما تجب معرفته من العلوم النقلية والعقلية فإنه يحصل بتدبره لمن أزال اللّه أكِنةَ قلبه وغشاوة بصره نتيجة العلم بما صار إليه أبناء جنسه بعد التخوّل فى الأموال والجنود من الفناء والبيود فإذا مرتبته بعد معرفة أقسام العلوم العقلية والنقلية ليعرف منه كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبل." على معنى أن المتلقى ينبغى أن يكون ملماً بوجهة النظر الإسلامية فى التاريخ حتى تتحقق له الغاية المرجوة من القراءة.

ثم ينسب المؤلف الكتاب إلى الفرع المعرفى الذى ينتمى إليه: "وأما من أى علم هذا الكتاب فإنه من علم الأخبار وبها عرفت شرائع اللّه تعالى التى شرعها وحفظت سنن أنبيائه ورسله ودون هداهم الذى يقتدى به من وفقه اللّه تعالى إلى

عبادته وهداه إلى طاعته وحفظه من مخالفته وبها نقلت أخبار من مضى من الملوك والفراعنة وكيف حل بهم سخط الله تعالى لما أتوا ما نهوا عنه وبها اقتدر الخليقة من أبناء البشر على معرفة ما دونوه من العلوم والصنائع وتأتى لهم على ما غاب عنهم من الأقطار الشاسعة والأمصار النائية وغير ذلك مما لا ينكر فضله ولكل أمّة من أمم العرب والعجم على تباين آرائهم واختلاف عقائدهم أخبار عندهم معروفة مشهورة ذائعة بينهم ولكل مِصْر من الأمصار المعمورة حوادث قد مرت به يعرفها علماء ذلك المصر فى كل عصر ولو استقصيت ما صنف علماء العرب والعجم فى ذلك لتجاوز حدّ الكثرة وعجزت القدرة البشرية عن حصره." هنا لا يكتفى المؤلف بتسمية العلم الذى ينتسب إليه كتابه بل يؤكد عل أهميته القصوى فيما يضيف إلى ما سبق من سعى المؤلف إلى التأسيس لمشروعية الكتاب و التأكيد على الحاجة إليه و هو ما أصبح الكتاب المعاصرون يضعونه تحت عنوان أهمية الدراسة أو مبرراتها.

ثم يذكر المؤلف أجزاء الكتاب المختلفة: "وأما أجزاؤه .

أولها: يشتمل على جمل من أخبار أرض مِصر وأحوال نيلها وخراجها وجبالها.

وثانيها: يشتمل على كثير من مدنها وأجناس أهلها.

وثالثها: يشتمل على أخبار فسطاط مِصر ومن ملكها.

رابعها: يشتمل على أخبار القاهرة وخلائقها وما كان لهم من الآثار.

وخامسها: يشتمل على ذكر ما أدركت عليه القاهرة وظواهرها من الأحوال.

وسادسها: يشتمل على ذكر قلعة الجبل وملوكها. وسابعها: يشتمل على ذكر الأسباب التى نشأ عنها خراب إقليم مصر.

وقد تضمن كل جزء من هذه الأجزاء السبعة عدة أقسام."

ولعل من أهم الرؤوس التى ترد فى المقدمة الحديث عن منهجيتها و طرائق جمع البيانات فيه وهى النقل و الرواية و المشاهدة: "وأما أى أنحاء التعاليم التى قصدت فى هذا الكتاب فإنى سلكت فيه ثلاثة أنحاء وهى النقل من الكتب المصنفة فى العلوم والرواية عمن أدركت من شيخة العلم وجلة الناس والمشاهدة لما عاينته ورأيته. "فيما يتصل بالنقل يؤكد المؤلف على التبعة الأخلاقية فى رصد الدراسات السابقة و يسخر من صنف من المؤلفين "صار لقلة إشرافه على العلوم وقصور باعه فى معرفة علوم التاريخ وجهل مقالات الناس يهجم بالإنكار على ما لا يعرفه." لا ينبغى أن يعادى المرء ما يجهل. فأين نحن اليوم من نصائح المقريزى؟

وفى معرض حديثه عن الرواية والمشاهدة يجيب المقريزى عن تساؤل طرحناه من قبل فيما يتصل بنسبة الأشعار و الأخبار إلى مصادرها و يعترف فى الوقت ذاته بقصوره الإنسانى و لا يقع فى شرك الوهم – وهم المعرفة المطلقة: "وأما الرواية عمن أدركت من الجلة والمشايخ فإنى فى الغالب والأكثر أصرح باسم من حدّثنى إلا أن لا يحتاج إلى تعيينه أو أكون قد أنسيته وقلّ ما يتفق مثل ذلك. وأمّا ما شاهدته فإنى أرجو أن أكون ولله الحمد غير متهم ولا ظنين." وفى كل ذلك تلك الأنا المتكلمة فى النص تفصح عن نفسها غير مضطرة إلى استخدام المبنى للمجهول و تكرر فى النهاية التأكيد على محدودية المعرفة الإنسانية وطلاقة المعرفة الإلهية: "وقد قلت فى هذه الرؤوس الثمانية ما فيه قنع وكفاية ولم يبق إلا أنْ أشرع فيما قصدت وعزمى أن أجعل الكلام فى كل خط من الأخطاط وفى كل أثر من الآثار على حدة

ليكون العلم بما يشتمل عليه من الأخبار أجمع وأكثر فائدة وأسهل تناولًا واللّه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم وفوق كلّ ذى علم عليم."

وها هى ذى الأنا المتكلمة فى نهاية فقرة من عرض المقريزى بعض "الدراسات السابقة" أو "الأدبيات" فى موضوع كتابه، تسلم الأمر كله للّه و تعود لتعترف بعجزها و نقصانها و لا تختفى مع ذلك خلف قناع المبنى للمجهول: "... فلما كانت الحوادث والمحن من سنة ست وثمانمائة شمل الخراب القاهرة ومصر وعامّة الإقليم وسأورد من ذكر الخطط ما تصل إليه قدرتى إن شاء اللّه تعالى." ولا تكاد تلك الأنا تغيب فى أى موضع من الخطط بل تعاود الظهور معلنة عن مواقفها وتوجهاتها وتشكيكها وإعجابها و تلوينها الأخبار و الأوصاف بصنوف البديع و البيان والمحسنات وقبل كل هذا وبعده فى نسبة كل الأحداث و الحوادث إلى تدبير اللّه عز و جل: "وزعم وهب بن منبه أن أوّل ما خلق اللّه تعالى من الأزمنة الأربعة الشتاء"، "وللّه درّ القائل وهو الحافظ جمال الدين يوسف بن أحمد اليعمرى رحمه اللّه تعالى"، "وللّه درّ القائل وهو الإمام عز الدين أبو الحسن أحمد بن على ابن معقل الأزدى المهلبى الحمصي"، "وانصرم فصل الخريف وحلّ فصل الشتاء واشتدّ البرد وخشن الهواء وتساقط ورق الشجر ومات أكثر النبات وغارت الحيوانات فى جوف الأرض وضعف قوى الأبدان وعَرى وجه الأرض من الزينة ونشأت الغيوم وكثرت الأنداء وأظلم الجوّ وكلح وجه الأرض إلا بمصر وامتنع الناس من التصرّف وصارت الدنيا كأنها عجوز هرمة"، "فإذا بلغت آخر برج الحوت وأوّل

برج الحمل عاد الزمان كما كان عام أوّل وهذا دأبه ذلك تقدير العزيز العليم وتدبير الخبير الحكيم لا إله إلاّ هو."

إن الكتابة التاريخية تظل مهددة دائماً من جهتين على الأقل فيما يتصل بحظها من الموضوعية: انحياز الوثائق و قصور الخبرات الشخصية للمؤرخ. ليس فى مقدور المؤرخ فى أغلب الأحوال الإلمام بكل الوثائق التى تتصل بموضوعه و ربما تتوافر المصادر و الوثائق عن طرف من أطراف صراع تاريخى دون غيره و هكذا ينحاز التأريخ فيبرز و يهمش و ينصف و يظلم. وعندما يعتمد المؤرخ على المشاهدة و الخبرات الشخصية يظل عاجزاً عن إدراك كل ما يتصل بموضوعه مهما كثرت أدواته. كان المقريزى واعياً بالخطرين وكان موضوعياً فى رفض القول بالموضوعية المطلقة فهو يعترف باحتمال النسيان ويدرك أنه لم يلم بكل ما كتب أو روى فيما يتصل بموضوع الخطط وينكر معاداة المرء ما جهل - دون أن يقلل من أهمية كتابه ومقدار الحاجة إليه و المنافع التى تتحقق من خلال قراءته و دون أن يبخس نفسه حقها فيما يتصل بصدق سعيه و نيته و بذله قصارى جهده.

إن هذا الجزء من الكتاب يريد أن يكون مثالاً للعلاقة- التى ليس من الصالح أن تنفصم- بين النص وسياقه وأن يلفت النظر إلى نصية التاريخ وبشريته كما تتجلى فى فاتحة **الخطط المقريزية**. مجرد مقاربة أولى لجزء من جزء من نص ثرى بالغ الأهمية فى الثقافة العربية الإسلامية. وقد رأينا أن المقدمة - بما فى ذلك الفاتحة النصية - تعكس السياق التاريخى التى كتبت فيه و الخلفية الثقافية والتوجهات الأيديولوجية لمؤلفها من خلال هيمنة المفردات والتعابير الدينية

والانحياز إلى تفسير إسلامى للتاريخ وتجلّى الأنا و توابعها و لوازمها فى النص. وفى نفس الوقت تعرض المقدمة منهجية تأريخية رائدة تنشد الكمال و تعترف باستحالته و تتحرى الموضوعية و لكن ترفض الادعاء بامتلاك الحقيقة المطلقة. ونحن لسنا بحاجة إلى تأكيد الريادة و الوقوع فى شرك الماضى و غواية التباهى بما أنجز الأجداد [1] بل نحن بحاجة إلى مراجعة توجهاتنا من النصوص التاريخية وطرائق تعليمها وقراءتها وتحليلها وتفسيرها. إذا كانت الكتابة التاريخية بهذه الإنسانية فما الذى ينبغى أن نتوقع من الرواية – ذلك الواقع المتخيل و الخيال الذى يتأسس على الواقع و يجاوزه ؟

---

(١) فى هذا الصدد نجد أن منهجية الخطط كما تعرضها المقدمة تنسجم مع مجمل ما توصل إليه المنشغلون بالحديث عن منهجية البحث العلمى فى الإنسانيات بعد أن تخلوا عن وهم الموضوعية المطلقة:
Swales, J. M. (1990). Genre Analysis- Cambridge: Cambridge University Press

openkandil.com